﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ من بيانِ نِعْمةِ الرِّسالةِ إلى نِعْمةِ الرَّسولِ

"لَمّا ذَكَرَ في أوَّلِ السّورَةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كانَ هذا إنْعامًا على الرَّسولِ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ فَوَّضَ إليه هذا المَنْصِبَ العَظيمَ، وإنْعامًا أيْضًا على الخَلْقِ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ أرْسَلَ إلَيْهِم مَنْ خَلَّصَهُم مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ وأرْشَدَهُم إلَى نورِ الإيمانِ، فذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما يَجْري مَجْرَى تَكْمِيلِ النِّعْمَةِ والإحْسانِ في الوجهَين.

أمّا فيما يخصّ الرَّسولَ ﷺ فَلأنّه تعالى بَيَّنَ أنَّ سائِرَ الأنْبياءِ كانوا مَبْعوثينَ إلى قَوْمِهِم خاصَّةً، وأمّا أنْتَ يا مُحَمَّدُ فمَبْعوثٌ إلَى عامَّةِ الخَلْقِ، فكانَ هذا الإنْعامُ في حَقِّكَ أفْضَلَ وأكْمَلَ.

وأمّا فيما يخصُّ عامَّةَ الخَلْقِ فهو أنَّهُ تعالى ذَكَرَ أنَّهُ ما بَعَثَ رَسولًا إلى قَوْمٍ إلّا بِلِسانِ أولَئِكَ القَوْمِ، فَإنَّهُ مَتَى كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ، كانَ فَهْمُهُم لِأسْرارِ تلك الشَّريعَةِ ووُقوفُهُم على حَقائِقِها أسْهَلَ، وعَنِ الغَلَطِ والخَطَأِ أبْعَدَ، فهذا هو وجْهُ النَّظْمِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِلِسَانِ﴾: "اللِّسانُ: ما ينطق، يُذَكَّر ويُؤَنَّث، والألسُن بيانُ التّأنيث في عددِه، والألسِنةُ في التّذكير، ولَسَنَ فلانٌ فلانًا يَلسُنُه، أي: أخَذَه بلسانه، وقال طَرَفة:

وإذا تَلْسُنُني ألْسُنُها *** إنَّني لستُ بمَوْهونٍ فَقِرْ[2]

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/63.

(2) ديوان طرفة بن العبد، ص: 42.

ورجلٌ لَسِنٌ: بَيِّنُ اللَّسَنِ، وشيءٌ مُلَسَّنٌ: جَعَلَ طَرَفَه كطَرَف اللِّسان، ولُسِنَ الرجُلُ أي قُطِعَ طَرَفُ لسانِه فهو مَلْسونٌ. واللِّسانُ: الكلامُ من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾"[1]، "أي: بلُغَة قومِه"[2]، و"رجُلٌ لَسِنٌ: بَيِّنُ اللَّسَنِ"[3]، "ومنه قوْلُه تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ [الروم: 22]، أي لُغاتِكُم؛ ومِنْه قوْلُهم: لِسانُ العَرَبِ أفْصَحُ لِسانٍ"[4]، والمقصودُ باللّسان في الآيةِ: اللّغة، أي: أرسل الله الرّسلَ بلغاتِ أقوامِهم ليتحقَّقَ المقصودُ.

2) ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: "البَيان: في الأصْل مصدرُ (بان الشَّيْء) بِمَعْنى: تبيّن وظهر، أو اسْمٌ من (بَيَّن) كالسّلام والكَلام، من (كلَّم) و(سلَّم) ثمَّ نَقله العُرفُ إلى ما يتَبَيَّنُ به من الدّلالَة وغَيرها؛ ونَقله الاصْطِلاح إلى الفصاحة، وإلى مَلَكة أو أصولٍ يُعرف بها إيراد المَعْنى الواحِد في صور مُخْتَلفَة ... والبَيان أيْضا: هو التَّعْبير عَمّا في الضَّمير، وإفهام الغَيْر، وقيل: هو الكَشْف عن شَيْء، وهو أعمُّ منَ النُّطْق؛ وقد يُطلق على نفس التَّبْليغ، كما في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾، والبَيانُ قد يكونُ بالفعل كما يكونُ بالقَوْل"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

إذا اتَّضحَ الكلامُ قـامتِ الـحُـجَّـةُ ونـهـضَ الـبُرهانُ ولم يَبْقَ لمُعْترِضٍ لسانٌ

تَنفي الآيةُ أن يكونَ هناك أيُّ إرسالٍ بلُغةٍ منَ اللُّغات إلّا بلُغة قوم الرّسولِ الذي أُرسلَ فيهم، ومقصودُ ذلك: "ليفْهَمَهُم ما أرسلَه اللّه تعالى به إليهم مِن أمرِه ونَهْيه؛ ليثْبِتَ حُجَّةَ اللّه تعالى عليهم، ثمّ التّوفيقُ والخِذلانُ بيدِ اللّه ﷻ، فيخذُلُ عن قَبولِ ما أتاه به رسولُه

(1) الخليل، العين: (لسن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (لسن).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (لسن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (لسن).
(5) أبو البقاء، الكليات: (بين).

مِن عنده مَن شاء منهم، ويوفِّقُ لِقَبوله مَن شاء ... وهو العزيزُ الذي لا يَمتنعُ ممّا أراده مِن ضلالٍ أو هدايةٍ مَن أرادَ ذلك به، الحكيمُ في توفيقِه للإيمان مَن وفَّقه له، وهدايتِه له مَن هداه إليه، وفي إضلالِه مَن أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ في المَطْلعِ:

الاستئنافُ جاء لبيانِ لُغةِ الكتابِ النّازلِ ووظيفةِ اللّغةِ النّازلِ بها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ للاستئنافِ، والجملةُ مُستأنَفةٌ، تكشفُ عن أنّ الرّسولَ ﷺ من بني جِلدتِهم، وأنَّ الكتابَ الذي أُنزلَ إليه ليخرجَ النّاسَ منَ الظّلمات إلى النّور بلسانِهم، ليس غريبًا عليهم؛ فلا وجهَ لعدمِ فهمِهم عنه، ولا حُجّةَ في ادّعائِهم عدمَ فِقْهِ ما جاء به، وجاءت هذه الجملةُ بعد ذكر إنزالِ الكتابِ، فحسُنَ بيانُ لغةِ الكتابِ النّازلِ، فكأنَّه قال: كتابٌ عربيٌّ أُنزل إليك؛ "ليقعَ البيانُ والعبارةُ المتمكّنةُ، ثم يكونَ سائرُ النّاسِ من غير أهل اللّسانِ عيالًا في التَّبْيين على أهل اللِّسانِ الذي يكونُ للنّبيّ"[2].

بَلاغةُ القصْرِ في الآية:

إرسالُ كلِّ رسولٍ بلُغةِ قومِه ضرورةٌ حَتْميّةٌ لتَحْقيقِ الثَّمرةِ المَرجوَّةِ

القصرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، يقرّرُ أنّ رسول كلِّ أمةٍ يُخاطبُها بلغتِها؛ فذلك بيانُه جليًّا، وأثرُه فيهم مرجَّحًا، ولم تقفِ اللّغةُ حائلًا بين وضوح الرّسالةِ وتعاليمِها وبين أفهام قومِه.

وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ أسلوبَ النّفي والاستثناءِ الذي من شأنِه تأكيدُ القضايا المشكوكِ في صحّتِها وفي صدقِها، حيثُ دَعَتِ الحاجةُ إلى تقرير رسالتِه ﷺ وصدقِ كتابه الذي أتى به من عندِ اللّه تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/516.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/323.

و"تقديرُ الآية: وما أرسلنا قبلَك رسولًا إلا بلسان قومِه، وأنت مبعوثٌ بلسان قومِك إلى الخلْقِ جميعًا"[1]، "فما لِقومكَ لم يهتدوا بهذا القرآنِ وهو بلسانِهم!"[2].

وجاء القصرُ بأقوى صيغِه، وكأنَّ منكِرًا يُنكرُ تلك القضيَّةَ؛ فأكَّد له الخبرَ بالنّفي والاستثناء، وفيه إشارةٌ إلى يُسْر اللّغةِ التي يخاطبُ المرسَل إليهم بالنّسبةِ لهم، وأنَّ كفرَهم بعد ذلك يكون عنادًا وجحودًا، ويكونُ وبالُه عليهم في الدّنيا والآخرة، و"إذا كانت صيغةُ القصرِ مُستعملةً في ظاهرها ومُسلّطةً على مُتعلّقي الفعلِ المقصورِ كان قصرًا إضافيًّا لقلبِ اعتقادِ المخاطَبين، فيتعيَّنُ أن يكون ردًّا على فريقٍ منَ المشركين قالوا: (هلا أُنزلُ القرآنُ بلغة العجم)"[3].

فائدةُ الإسنادِ في ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

تعظيمُ الرُّسلِ والرِّسالاتِ النّازلةِ تابعٌ لعظَمةِ المُرسِلِ جلَّ في علاه

أسندَ النّظمُ الكريمُ الفعلَ (أرسل) إلى ضمير العظمةِ (نا) في جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ إجراءً للخبرِ على مُقتضى الحقيقةِ، فالمُرسِلُ هو اللّه ﷻ، العظيمُ الجليلُ، مالكُ الملك وملكُ الملكوتِ، وهو العظيمُ في ذاته وصفاتِه وأسمائِه، وما دام بهذه العظمةِ فقد وجبَ على المُرسَلِ إليهم احترامُ رسلِه، وتقديرُهم، وعدمُ التّعرُّض لهم بسوء، وفيه تعظيمُ الرُّسل، والرّسالاتِ، وتشريفُ من أقبلَ مؤمنًا على أولئك الرُّسلِ، راضيًا بكلامِ اللّه تعالى، مُطْمئنًّا بما جاءه من عنده.

فائدةُ دُخولِ ﴿مِن﴾ على النّكرةِ:

إرسالُ الرُّسلِ بلُغاتِ أقوامِهم عامٌّ لم يَتخلَّفْ

أفاد دخولُ حرفِ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ العمومَ، فالمقصودُ برسولٍ جنسُ الرُّسل، فهي بيانيّةٌ تفيدُ تأكيدَ العمومِ المستفادِ من جملة القصرِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، وهي

(1) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/574.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/186.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/185.

كذلك تفيدُ "استغراقَ النّفي ثمّ الإثباتَ، أي ما أرسلنا أيَّ رسولٍ إلا بلسان قومِه ليبيّنَ لهم"[1].

معنَى الباءِ في قوله: ﴿بِلِسَانِ﴾:

الرُّسُلُ علماءُ بلُغاتِ أقوامِهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ﴾ تفيدُ معنَى "الملابسة، فلُغةُ قومِه مُلابِسَةٌ لكلامِه"[2]، فالرُّسُلُ علماءُ بلُغاتِ أقوامِهم التي أُرسلوا بها، فهم يعلمون مضامينَ الكلام، وهم من يُبيِّنُ للنّاس المقصودَ بالكلام على وجهِه، و"يجوزُ أن يكونَ حالًا، أي: إلا متكلِّمًا بلغةِ قومِه"[3].

بَلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾:

اللّسانُ في القرآنِ الكريمِ هو اللُّغةُ

المقصودُ باللّسان هنا اللّغةُ، أي: ما أرسلْنا من رسولٍ إلّا بلُغةِ قومِه، ولأنَّ اللّسانَ أداةُ اللّغةِ وآلتُها سُمّيت باسْمِه، "وإطلاقُ اللِّسانِ وهو اسمُ الجارحةِ المعروفةِ في الفمِ على اللُّغةِ مجازٌ شائعٌ"[4].

وفي تحاشي النَّظمِ الكريمِ ذِكْرُ مفردة اللّغةِ تجنُّبٌ لِما يوهمُ بعضَ اشتقاقِها منَ (اللغو)، فليس في كلام الله تعالى لَغوٌ، وليس في كلام رُسلِه الكرامِ لَغوٌ؛ لذلك آثرَ الذّكرُ الحكيمُ تركَ مادّةِ اللّغوِ فلم تَرِد فيه نهائيًا، لكنه عبّرَ عنِ اللّغة باسمِ آلتِها الخاصَّةِ بها وهي اللّسانُ مجازًا لغويًّا مرسَلًا، وذلك بجعلِ العلاقةِ آليَّةً بإطلاقِ الآلةِ وهي اللِّسانُ، وإرادةِ اللّغةِ، أو محليَّةً بإطلاقِ محلِّ اللّغة وهو اللِّسان، وإرادةِ ما يحلُّ به، ونُكتةُ استعمالِ اللِّسان بإرادةِ اللّغةِ، باعتبارِ أنّ أشرفَ ما يُستعملُ فيه هو الكلامُ[5].

وجْهُ إفرادِ الـ ﴿بِلِسَانِ﴾:

اللُّغةُ تقعُ على القَليلِ والكثيرِ فأغْنَى إفرادُها عن جمْعِها

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ "وَحَّدَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3985.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/186.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/69.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/321.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/25.

اللِّسانَ وإنْ أضافَهُ إلى القَوْم؛ لِأنَّ المُرادَ اللُّغَةُ، فهي اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ على القَليلِ والكَثيرِ"[1]، و"يقالُ: فلانٌ يتكلّمُ بلسانِ العربِ، أي: بلُغتِهم، قال أبو بكر: ولهذا المعنى وحّدَ اللّسانَ، وإن أُضيفَ إلى القوم؛ لأنه أريدَ باللّسان اللّغةُ، واللّغةُ تقعُ على قليلِ المنطق وكثيرِه"[2].

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ (قوم):

المرادُ بلفْظِ (القوم) في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ " قومُه الذي ولد محمد ﷺ فيهم، لا قومُه الذي بعث إليهم؛ لأنه مبعوثٌ إلى الخلق كافّةً"[3]، ولذلك عبَّر بالقوم لا بالأمَّة، فإنَّ الأمَّةَ عامَّةٌ يدخل فيها ألسنٌ كثيرةٌ، والمرادُ اللِّسانُ العربيُّ لا غيرُه، فاستقام بذلك قوَّةُ التَّعبيرِ بالقومِ لا بالأمَّة.

الأمَّـةُ تَشتملُ لُـغـاتٍ عـديـدةً والمـقـصـودُ لغةُ العربِ لا سِواها

فالأمَّةُ أوسعُ وأشملُ منَ القوم "كما في حقّ نبيِّنا ﷺ؛ فقد بُعث إلى العرب والعجم، والجنّ والإنس، فقومُه الذين يفهمون عنه: يُتَرْجُمونَ إلى مَن لا يفهمُ، فتقومُ الحجّةُ عليهم، وكذلك إعجازُ القرآن يُدركُه أهلُ الفصاحة والبلاغةِ، فإذا وقع العجزُ عن معارضتِه منهم قامتِ الحُجّةُ على غيرِهم"[4].

سِرُّ إضافةِ القومِ إلى الضّميرِ:

أولَـى الـنّـاسِ بـالـرُّسـلِ أقوامُهم؛ فبهم يقومُ أمرُه، وبه يقومُ أمرُهم

في إضافة القوم إلى ضمير الرّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ إشارةٌ مطويّةٌ إلى قوّة الرّابطةِ التي تربطُ بين الرّسول وقومِه؛ الذين يُفترضُ أنّه بهم يقومُ أمرُه، وبه يقومُ أمرُهم، وأنّهم أولَى النّاس به، وذلك أدْعى إلى احتفائِهم به لا محاربتِه، والتّشرّفِ به لا معاداتِه ومناوأتِه، وبناءً على ذلك فمنَ العَجب أن يتصدّى الأقوامُ لرُسلِهم الذين هم من بني جِلدتِهم، ويَنطقون بألسنتِهم.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/340.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/399.
(3) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/573.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/43.

معنَى اللّامِ في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ هي لامُ التَّعليل، وهي قيدٌ لبيانِ غرَضِ إرسالِ الرُّسُل بلسانِ أقوامِهم، الذي لولاه لَما صحَّ التّكليفُ؛ فيدْعوهم بلُغتِهم "ليَعْقِلَ عنه قومُه"(1)، و"ليتّخذَ بذلك الحُجّةَ"(2) عليهم، و"لا يكونُ لهم حُجّةٌ على اللّه تعالى، ولا يقولون له لم نفهم ما خوطِبْنا به"(3). و"ليكونَ آكدَ في إلزام الحُجّةِ، وأنّى ينفعُ ذلك إذا لم يوفّقوا لسلوكِ المحجّةِ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السّابقةِ، وأصحابُ الغَوايةِ وقعوا في ذلِّ العَداوةِ، فلا اعتراضَ عليه فيما يصنعُ، ولا يُسألُ عمّا يفعلُ أو لم يفعل"(4). و"إنِ اعتَرَض أعجميٌّ بأنْ يقول: من أين يُبَيِّنُ لي هذا الرّسولُ الشّريعةَ وأنا لا أفهمُه؟ قيل له: أهلُ المعرفةِ باللّسان يُعبِّرون ذلك، وفي ذلك كفايتُك، فإن قال: ومن أين تَتَبَيّنُ لي المعجزةُ وأفهمُ الإعجازَ وأنا لا أفقهُ اللّغةَ؟ قيل له: الحجَّةُ عليك إذعانُ أهلِ الفصاحةِ، والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنّهم قادرون على المعارضةِ، وبإذعانِهم قامتِ الحُجّةُ على البشرِ، كما قامتِ الحُجّةُ في معجزة موسَى بإذعانِ السَّحرةِ، وفي مُعجزة عيسى بإذعانِ الأطبّاءِ"(5).

لـغـةُ الـكـتـابِ الـخـاتـمِ هي العربيّةُ، وأهلُها حُـجّـةٌ عـلى مَن وراءَهـــم مـنَ الأُممِ

غَرَضُ حذْفِ المفعولِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

مفعولُ "﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾: ما هو مبعوثٌ به وله، ومحمّدٌ ﷺ مبعوثٌ إلى الخلق كافّةً بلسان قومِه الذي وُلِد فيهم، وتربّى بينَهم"(6)، فهو يُبيِّنُ الكتابَ النّازلَ للنّاسِ، ونكتةُ حذْفِ المفعولِ اتّساعُ دائرةِ البيانِ؛ لتشملَ الكتابَ وما يتعلَّقُ بالكتابِ، ولو قال: (ليبيّنَ لهمُ الكتابَ)؛

الـوحـيُ المُـبـيَّنُ هو عمومُ وحْيِ الكتابِ والسُّنَّةِ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/154.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/517.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/162.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 2/239.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 13/323.
(6) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 937.

لظُنَّ اقتصارُ البيانِ على الكتابِ، ولاختلف النّاسُ في ذلك، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: 44] ما يُفيدُ عمومَ البيان، فإنَّ ما نُزِّلَ إلى النّاس هو وحيُ الكتابِ والسُّنَّة؛ فليُتأمَّلْ.

دَلالةُ صيغةِ المضارعةِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

من مُهمّةِ حامِلي لواءِ الدَّعوةِ تجديدُ البيانِ، وتحديثُ الوسائلِ

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدّدِ والاستمرارِ، كما أنَّ صيغةَ المضارعةِ تومئُ إلى أنَّ مهمّةَ الرُّسُل، ومن يتّبعونَهم من حملةِ لواءِ دعوتِهم، هو تجديدُ البيانِ للنّاس، وتحديثُ الدّعوة، حتى يؤتيَ البيانُ ثمارَه في القوم ما أمكنَ، وأنَّ القومَ الذين لا يَستجيبون يَتحمّلون مَسؤوليةَ تأبّيهم، إذ يكونُ البيانُ تامًّا ولا عُذرَ لهم.

بَلاغةُ تَقْييدِ البيانِ بـ ﴿لَهُمۡۖ﴾:

غايةُ البيانِ رِعايةُ الأقوامِ والعِنايةُ بمَصالحِهم

الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡۖ﴾ صريحٌ في أنّ غايةَ بيانِ الرّسولِ هي منفعةُ قومه، وأنّه أُرسلَ إليهم لمصلحتِهم، ويُبيّنَ ﴿لَهُمۡۖ﴾ لمنفعتِهم، فالجديرُ بهم حينئذ إسداءُ الشُّكرِ لرسولِهم، والإقرارُ له بالفضلِ عليهم، لا منازعتُه وتصعيدُ الاختلافِ معه إلى درجة مقارعتِه بالسّيف وربما قتلِه قتلًا، واستعمالُ هذا الحرفِ دالٌّ على أنَّ البيانَ كان لهم دونَ غيرِهم، ففيه الاختصاصُ الدّالُّ على الرِّعاية والعنايةِ بالأقوامِ الذين أُرسل إليهمُ الرُّسُلُ.

معنَى الفاءِ:

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ "استئنافُ إخبارٍ"[1]، ولذلك جاء الفعلُ مرفوعًا بعد فعل ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ المنصوبِ، وهذا معنى قولِ الفرّاء: "وإذا رأيتَ الفعلَ منصوبًا وبعده فعلٌ قد نُسِقَ عليه؛ فإنْ كان يُشاكلُ معنى الفعل الذي قبله نَسَقْتَه عليه، وإن

الفاءُ فصيحةٌ تومئُ إلى محذوفٍ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/70.

رأيتَه غيرَ مُشاكلٍ لمعناه استأنفتَه فرفعتَه"[1]، فالفاءُ للاستئنافِ في العمل النَّحويِّ، وهي فصيحةٌ في البيانِ، "كأنه قيل: فبيَّنوه لهم، فأضلَّ اللّه منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليقُ إلّا به، وهدى مَن شاء هدايتَه لاستحقاقِه لها"[2].

غرضُ تقديمِ الإضلالِ على الهُدى:

الغالبُ أنّ لِأهل الضّلالِ في الدّنيا مَرتبةَ الظُّهورِ، فلا يَنزعِجُ لذلك أهلُ الهُدى

في تقديمِ إضلالِ اللّه تعالى من يشاءُ على هدايتِه سُبحانه من يشاء في قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ اتِّساقٌ مع واقع الأقوامِ المَدعوّين إليه ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116] وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، وقولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، "وتقديمُ الإضلالِ على الهدايةِ إمّا لأنَّه إبقاءُ ما كان على مَن كان والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغةِ في بيانِ أنْ لا تأثيرَ للتّبيينِ والتّذكيرِ من قِبَل الرُّسلِ، وأنَّ مدارَ الأمر إنّما هو مشيئتُه تعالى بإيهام أنَّ ترتُّبَ الضّلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتُّبِ الاهتداءِ، وهذا محقِّقٌ لِما سلفَ من تقييد الإخراجِ مِنَ الظّلمات إلى النّور بإذن اللّه تعالى"[3].

دَلالةُ المُضارعةِ في ﴿فَيُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهۡدِي﴾:

البَشرُ يتقلّبون بين المَعاصي والطّاعاتِ لا يَفتُرون

صيغةُ المضارعةِ في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهۡدِي﴾ تُترجمُ بواقعيةٍ دقيقةٍ ما يجري في كونِ اللّه تعالى مِنَ الإضلال والهداية ليلَ نهارَ، إذ لا يتوقّفُ هذا ولا ذاك لحظةً منَ الزّمنِ، وفي الحديث الشّريف: «بادِروا بِالْأَعْمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ويُمْسي كافِرًا، أوْ يُمْسي مُؤْمِنًا ويُصْبِحُ كافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/400.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/32.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/32.

بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيا»[1]. فأحوالُ العبيدِ بين الهدى والضّلال دائرةٌ، وأهلُ الضّلال بهذه الكثرةِ الكاثرةِ، ومعهم أهلُ التّوحيد يتقلّبون جميعًا بين المعاصي والطّاعات.

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

مُجرياتُ الأمورِ بالمشيئةِ لا يندُّ عنها شيءٌ

شاع في الذّكرِ الحكيم حذْفُ مفعولِ المشيئةِ الإلهيّةِ؛ لأنّ مشيئتَه ﷻ نافذةٌ لا يَعوقُها عائقٌ، والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: فيضلُّ اللّه ﷻ من يشاءُ إضلالَه ويهدي من يشاءُ هدايتَه، فدلَّ الحذفُ على مطلق القُدرةِ الإلهيّةِ، وأفاد أنّ كلَّ شيءٍ يجري في كونِه ﷻ على وفْق مشيئتِه، لا يَندُّ عنها شيءٌ.

دَلالةُ الواوِ في جملةِ الفاصلةِ:

إضـــلالُ الـلـه تعالى وهدايتُه يَجْريان على وفْقِ عـزّتِه وحِكمتِه المُطْلقتَين

الواوُ في جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استئنافيّةٌ؛ إذ تقرّرَ مضمونُ الآيةِ الكريمةِ؛ وأنه ﷻ "العَزيزُ في ملكِه، الحَكيمُ في أمرِه وقضائِه"[2]؛ فردَّ ﷻ "المشيئةَ إلى نفسه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في مُلكِه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾"[3] باختيارِه، وبعزّتِه حكمتُه المطلقةُ، التي تضعُ الأمورَ في نصابِها، ولا تضعُ شيئًا في غير موضعِه.

بَلاغةُ القصْرِ في جملةِ الفاصلةِ:

لا تجتمعُ العزَّةُ المُطْلقةُ والحِكمةُ الـكـامـلـةُ إلّا لصاحبِ الخلْقِ والأمْرِ

بناءُ جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على تقديمِ الضّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ أسلوبٌ يفيدُ القصْرَ، فيَقصرُ هنا العزّةَ والحكمةَ المطلقتَين على اللّه ﷻ، فلا عزيزَ بالمعنى الحقيقيِّ لهذا الوصفِ إلّا هو ﷻ، ولا حكيمَ بالمعنى الدّقيقِ لهذا الوصف إلّا هو ﷻ.

والقصرُ هنا قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، أسهمت (أل) التّعريفيّةُ في إفادتِه، ودعمتْ تحقُّقَه في الصّفتَين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولو

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (118).
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/35.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/397.

جاء التّعبيرُ (وهو عزيز حكيم) لَما أفاد معنَى القصرِ الحقيقيِّ التّحقيقيِّ، ولَما كانتِ الصّفتان ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مختصتَين به ﷻ، ومن هذا الذي "لا يغالبُ في مشيئتِه ولا يفعلُ شيئًا إلّا لحكمةٍ"[1] سِواه عزَّ في عُلاه.

بَلاغةُ التَّذْييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

وضعُ الأشياءِ في مواضِعِها فعْلُ العَزيزِ الحَكيمِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "تذييلٌ؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ قوي لا ينفلتُ شيءٌ من قُدرته، ولا يخرُجُ عمّا خُلِقَ له، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ يضعُ الأشياءَ مواضعَها، فمَوْضِعُ الإرْسال والتّبْيين أُتي على أكْمَلِ وجْهٍ مِنَ الإرْشادِ، ومَوْقِعُ الإضْلالِ والهُدَى هو التَّكْوينُ الجاري على أنْسَبِ حالٍ بأحْوالِ المُرْسَلِ إليهم، فالتَّبْيينُ مِنْ مُقْتَضَى أمْرِ التَّشْريعِ، والإضْلالُ مِنْ مُقْتَضَى أمر التّكوينِ"[2].

والذي يُضلُّ مَن يشاء ويَهدي مَن يشاءُ بلا عائق يَعوقه ولا متأبٍّ يتأبَّى عليه لا يكون إلّا عزيزًا بل ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القويُّ القادرُ القاهرُ فوق عباده، الذي لا يُغلَب ولا يُقهرُ، الذي ﴿أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي عزَّ فحكمَ في ملكه، الحكيمُ الذي "لم يؤخذْ عليه في فعلِه خطأٌ قط، مصيبٌ وضعَ كلَّ شيء موضِعَه"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البيانُ والتّفصيلُ:

البيانُ توضيحٌ عامٌّ والتَّفصيلُ إيضاحٌ زائدٌ

يختصُّ البيانُ بإخراجِ الشّيء من حيِّزِ الإشكال إلى حدِّ التّجلّي، وإظهارِ المعنى للنّفس كائنًا ما كان، وما ذُكرَ ليُعرفَ به غيرُه فهو البيانُ، وإظهارُ المعنى للنّفس كإظهارِ نقيضِه، والتّفصيلُ هو ذكرُ

(1) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/566.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.

ما تضمّنتْه الجملةُ على سبيل الإفراد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]، ولم يَقُل: شُرحت، والتّفصيلُ هو وصْفُ آحادِ الجنس، وفي التّفصيل معنى البيانِ عن كلّ قسمٍ بما يزيدُ على ذكرِه فقط[1]. ومُقتضى الأحكامِ الشّرعيّةِ، والسُّننِ إخراجُ مضامينِها من حيِّزِ الإشكال إلى حدِّ التّجلّي؛ لتَيْسيرِ تطبيقِها، واعتمادِها منهجَ حياةٍ، وطُرقَ نجاةٍ، وسُبلَ هدايةٍ، وهو معنى يناسبُه لفظُ (البيان) لِما ظهرَ من دلالتِه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، 134، 298.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»